الفصل الخامس عشر:
في فضل حكمة النساء

الفصل الخامس عشر: في فضل حكمة النساء

حكمة النساء

قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ[2] فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

أحاديث نبوية

* وَعَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً؛ فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَع، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيْمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ، لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»[4].

❀ ❀ ❀

الوصية الغالية

أوصت أعرابية ابنتها في ليلة زفافها فقالت: أي بنية، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك ولزويته[5] عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل وتنبيه للغافل، أي بنية: إنك قد فارقت الحواء الذي فيه درجت إلى

---

(1) سورة: آل عمران، الآية: 48.

(2) الميل: أي لا تفعلوا فعلاً تقصدون به التفضيل وأنتم تقدرون على تركه. فتذروها: أي الزوج كالمعلقة، فلا هي ذات زوج ولا هي أيم.

(3) سورة: النساء، الآية: 129.

(4) متفق عليه.

(5) زويته: زوى الشيء: نحاه، منعه.

وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي عني خصالاً عشراً تكن لك دركاً وذكراً :

فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع والطاعة، فإن القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب.

وأما الثالثة والرابعة: فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح، واعلمي بنية أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود.

وأما الخامسة والسادسة: فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة[1]، وتنغيص النومة مغضبة[2].

وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله والرعاية على حشمه (ذوي قرباه) وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، إن عصيت أمره أوغرت صدره، واتقي الفرح بين يديه إن كان ترحاً ـ حزناً ـ والاكتئاب عنده إذا كان فرحاً، فإن الأولى من التقصير والثانية من التكدير.

واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت[3].

❀ ❀ ❀

نُبل امرأة

من طريف ما يحكى عن نبل المرأة ما ذكره العتبي: أنه كان ماشياً في

(1) مُلهبة: المراد يُلهب ويُغضب .
(2) مغضبة: يسبب الغضب .
(3) الحقوق الإسلامية، لطه عفيفي، ص: 351 .

شوارع البصرة، فإذا امرأة من أجمل النساء وأظرفهن تلاعب شيخاً سمجاً قبيحاً، وكلما كلمته تضحك في وجهه، فدنوت منها، وقلت لها: من يكون هذا منك؟ فقالت: هو زوجي، فقلت لها: كيف تصبرين على سماجته وقبحه مع حسنك وجمالك؟! إن هذا من العجب!

فقالت: يا هذا لعله رُزق مثلي فشكر، وأنا رُزقت مثله فصبرت والصبور والشكور من أهل الجنة، أفلا أرضى بما قسمه الله لي؟! فأعجزني جوابها فمضيت وتركتها[1].

❀ ❀ ❀

اجلدوا غاسلة المَيِّتَات

كانت امرأة تغسل الميتات وبينما تغسل إحدى المسلمات قالت: ربما زنى هذا الفرج ـ أي فرج الميتة ـ فألصق الله يدها بفرج الميتة ولم تستطع أن تتخلص من انتقام الله تعالى وظلت وقتاً طويلاً في الغُسل حتى دخل الناس إليها فوجدوا يدها التصقت بفرج الميتة فأرسلوا إلى الأطباء فقالوا: نقطع جزءاً من فرج الميتة، وقال بعضهم: نقطع جزءاً من يد الحية، فأرسلوا إلى الفقهاء فاختلفوا فأرسلوا إلى الإمام مالك فقال: لعل المغسلة قذفت الحية فاسألوها، فإن اعترفت فاجلدوها . فسألوها، فاعترفت، فجلدوها ثمانين جلدة ففكَّ الله يدها.

❀ ❀ ❀

إكليل الذهب

رصد أحد الملوك إكليلاً من الذهب يقدمه جائزة لأعظم عمل يقوم به أحد أفراد رعيته . وذات يوم مثل أمامه شاعر ورسام وعالم . وتقدم الشاعر وأنشد أمام الملك قصائد من روائع شعره.

وبعده جاء الرسام الذي عرض أمامه لوحاته الفنية ورسومه الجميلة وخطوطه البديعة . وأخيراً جاء العالم وهو يحمل كتبه ويشرح للملك بعض

(1) تحفة العروس، ص: 147 .

اختباراته وتجاربه ويوضح له الاكتشافات والاختراعات التي توصل إليها في مباحثه.

وفي النهاية ظهرت امرأة كلل الشيب شعرها، فسألها الملك: ما لديك أيتها العجوز؟ وما عندك لتقدميه؟

أجابت: إن الذين مثلوا أمامك أيها الملك هم أولادي، وقد جئت لأرى من منهم ينال الجائزة ويحظى بتاج الذهب.

وهتف الملك على الفور :

ضعوا التاج على رأس هذه السيدة صانعة هؤلاء الرجال العظماء.

❀ ❀ ❀

فقه امرأة

نظر رجل إلى زوجته وهي تصعد السلم فقال لها :

أنت طالق إذا صعدتِ..... وطالق إن نزلتِ.... وطالق إن وقفتِ.... فما كان من المرأة إلا أن قفزت من فوق السلم إلى الأرض في الحال.

فقال لها: فداك أبي وأمي ... إذا مات الإمام مالك ... احتاج إليك أهل المدينة في الفقه.

❀ ❀ ❀

نضارة وجمال

سئلت امرأة عجوز تقدم بها السن عن سر احتفاظها بنضارتها وجمالها وبهاء منظرها ـ أي مواد التجميل تستعملين ـ؟

فأجابت: أستخدم لشفتي الصدق ... ولصوتي الصلاة ... ولعيني الرحمة والشفقة ...وليدي الإحسان ... ولقوامي الاستقامة ... ولقلبي الحب ...

❀ ❀ ❀

حاجتها للزواج

مرضت عجوز ... فذهب بها ابنها إلى الطبيب ... فرآها متزينة بأثواب جميلة ... فعرف الطبيب حالها ...

فقال: ما أحوجها إلى الزواج ..؟

فقال الابن: ما للعجائز والأزواج ..؟

فقالت العجوز لابنها: ويحك يا بني ... أأنت أعلم من الطبيب ..؟.!

❀ ❀ ❀

أخبري من وراءك من النِّساء

وفدت «أسماء بنت يزيد» على النبي ﷺ فقالت :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنه ليس في شرق البلاد وغربها امرأة إلا وهي مثل رأيي . إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك وبإلٰهك الذي بعثك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قوامات بيوتكم وحاملات أولادكم، وحافظات أموالكم، وخوالفكم في سفركم، وممرضاتكم في الحضر . وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج والعمرة، وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل الله، وإنكم إذا خرجتم حجاجاً ومجاهدين، وتجاراً ومسافرين حفظنا لكم أموالكم، وربينا لكم أولادكم ثم غزلنا لكم الأثواب، وجمعنا لكم الطعام.

أفنشارككم في الأجر يا رسول الله؟؟

فأقبل النبي ﷺ على أصحابه وقال لهم :

«هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مقالتها في حسن مساءلتها عن أمر دينها؟».

ثم أقبل عليها فقال :

«ارجعي أيتها المرأة، فأخبري من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن

لزوجها واجتنابها سخطه، واتباعها مرضاته، يعدل ذلك كله».

فولت المرأة تكبر وتهلل استبشاراً.

❀ ❀ ❀

زوجة خسرو والصياد

يقال إن الملك خسرو بن برويز كان يحب أكل السمك، وكان يوماً جالساً في المنظرة ومعه زوجته شيرين فجاء صياد ومعه سمكة كبيرة وأهداها للملك ووضعها بين يديه فأعجبته فأمر له بأربعة آلاف درهم.

فقالت شيرين: بئس ما صنعت . فقال الملك: لمَ؟

فقالت: لأنك إذا أعطيت بعد هذا لأحد من حشمك هذا القدر قال: قد أعطاني مثل عطية الصياد.

فقال: لقد صدقت ولكن يقبح الملوك أن يرجعوا في هباتهم وقد فات الأمر. فقالت شيرين: أنا أدبر هذا الحال . فقال: وكيف؟

فقالت: تدعو الصياد وتقول له: هذه السمكة ذكر هي أم أنثى؟ فإن قال ذكر فقل إنما طلبت أنثى . وإن قال أنثى قل إنما طلبت ذكر.

فنودي الصياد فعاد وكان ذا ذكاء وفطنة، فقال له الملك: هذه السمكة ذكر أم أنثى؟

فقبَّل الصياد الأرض وقال له: هذه السمكة خنثى لا ذكر و لا أنثى.

فضحك الملك من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم . فمضى الصياد إلى الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم ووضعها في جراب كان معه وحملها على عنقه وهمَّ بالخروج فوقع من الجراب درهم واحد، فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم فأخذه، والملك وشيرين ينظران إليه.

فقالت زوجته شيرين: أرأيت خسة هذا الرجل وسفالته، سقط منه درهم واحد فألقى عن كاهله ثمانية آلاف درهم وانحنى على الدرهم الواحد ولم يسهل عليه أن يتركه ليأخذه غلام من غلمان الملك، فحرد الملك من ذلك وقال:

صدقت يا شيرين . ثم أمر بإعادة الصياد وقال له :

يا ساقط الهمة، وضعت هذا المال عن كاهلك لأجل درهم واحد وأسفت أن تتركه في مكانه؟ فقبَّل الصياد الأرض وقال :

أطال الله بقاءك أيها الملك، إني لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي وإنما رفعته عن الأرض لأن على وجهه صورة الملك وعلى الوجه الآخر اسم الملك فخشيت أن يأتي أحد بغير علم فيضع عليه قدميه فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وأكون أنا المؤاخذ والمسبب بهذا.

فعجب الملك من كلامه واستحسن ما ذكره وأمر له بأربعة آلاف درهم، فعاد الصياد ومعه اثنا عشر ألف درهم، فأمر الملك منادياً ينادي: ألا يتدبر أحد برأي النساء فإنه من تدبر برأيهنَّ وائتمر بأمرهنَّ خسر دراهمه.

❀ ❀ ❀

وصية العمر كله

قال القاضي شريح: تزوجت امرأة صغيرة فلما بَنَيْتُ ـ دخلت بها ـ قالت: عرفني خلقك لأعمل على مداراتك؟

فقلت لها: أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها.

ثم قالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟

قلت: ما أحب أن يملني أصهاري.

قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أمنعه؟

قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء.

قال: ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار.

فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة خَتَنَتُك، فلما جلست أقبلت العجوز.

فقالت: السلام عليك يا أبا أمية . قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة خَتَنَتُك ـ أم زوجتك ـ

قلت: قربك الله.

قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة.

فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها إلا في حالتين: إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريب فعليك بالسوط، فو الله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة.

قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضت فأحسنت الرياضة.

قالت: تحب أن يزورك أختانك؟ قلت: متى شاءوا.

قال: فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء.

وكان لي جار يقرع امرأته ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشلت يميني حين أضرب زينبا
أأضربها في غير ذنبٍ أتت به فما ... العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم يُبد منهن كوكبا

❀ ❀ ❀

المرأة الحرورية

كان الحجاج بن يوسف الثقفي جالساً في مجلسه بعد انتصاره على عبد الله ابن الزبير، وقال لحجابه: عليَّ بالمرأة الحرورية.

فلما حضرت قال لها: أنت بالأمس كنتِ في وقعة (ابن الزبير) تُحرضين الناس على قتلي وقتل رجالي ... ونهب أموالي؟

قالت: قد كان ذلك . فالتفت الحجاج إلى وزرائه وقال لهم: ما ترون فيها؟ قالوا: عجل بقتلها.

وعندما سمعت المرأة ذلك ضحكت ضحكة مدوية اغتاظ لها الحجاج فقال لها: ما أضحكك؟

قالت: إن وزراء فرعون كانوا خيراً من وزرائك هؤلاء.

فالتفت إليهم الحجاج فرآهم خجلوا . فقال لها: كيف ذلك؟

قالت: لأنه لما استشارهم في قتل (موسى) قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[1] ـ يعني أنظره إلى وقت آخر ـ وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلي . فضحك الحجاج، ثم أمر لها بعطاء وأطلقها وأعجبه مقالتها.

❀ ❀ ❀

كيف تختار امرأتك

سئل حكيم: كيف تختار امرأتك؟

فقال: أريدها ليست بالجميلة لكيلا يطمع فيها غيري، ولا بالقبيحة فتشمئز منها نفسي، ولا بالطويلة فأرفع إليها هامتي، ولا بالقصيرة فأطأطئ لها رأسي، ولا بالسمينة فتسد عليَّ منافذ النسيم، ولا بالهزيلة فأحسبها خيالي، ولا بالبيضاء كالشمع، ولا بالسوداء فتكون كالشبح، ولا بالجاهلة فلا تفهمني، ولا بالفيلسوفة فترهقني، ولا بالغنية فتقول مالي، ولا بالفقيرة فتذل من بعدي، وخير من كل ذلك ذات الدين كما قال ﷺ : «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

❀ ❀ ❀

الكرم طبع في الناس

يحكى أن رجلاً قال: كنت في سفر فضللت الطريق فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟

قلت: ضيف . قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف . انزل على الرحب والسعة وقدمت لي طعاماً وشراباً وأكرمتني بكل أدب، فبينما أنا على ذلك، إذ أقبل صاحب البيت، فقال: من هذا؟

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: 111 .

قالت: ضيف، فقال: لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف . فلما سمعت، غادرت وسافرت، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته، فإذا به أعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟

قلت: ضيف . فقالت: لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف . فبينما هي تكلمني، إذ أقبل صاحب البيت، فلما رآني قال: من هذا؟

قالت: ضيف . فقال الرجل: أهلاً ومرحباً بالضيف فأكرمني، وبينما أنا معه تذكرت ما حدث لي بالأمس، فتبسمت . فقال: مم تبسمك؟

فقصصت عليه من أمر الأعرابية وزوجها . فضحك الرجل: وقال لا تعجب إن تلك الأعرابية هي أختي، وأما بعلها فهو أخو هذه المرأة زوجتي، والعرق دساس!

❀ ❀ ❀

توقيع من الملك القدوس

بينما الوزير فخر الملك يمشي إذ بامرأة تعترضه وترفع إليه شكايتها، فذكرت له أن بعض غلمانه قد قتلوا زوجها، فجعل الوزير لا يلتفت إليها!

فقالت له ذات يوم: أيها الوزير أرأيت القصص التي رفعتها إليك فلم تلتفت إليها؟ قد رفعتها إلى الله ﷻ! وأنا أنتظر التوقيع عليها!!

فلم تمضِ أيام حتى قبض سلطان الدولة على الوزير فجرده من كل أمواله وأمر بقتله، وعندها قال الوزير بحرقة وأسى: والله قد خرج توقيع المرأة!.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه؟ وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ويرسلها إذا نفذ القضاء

❀ ❀ ❀

أرحنا بها يا بلال

جاءت امرأة يوماً إلى أحد الصالحين فقالت: إن ابني قد أخذه الحرس وإني أحب أن تبعث إلى صاحب الشرطة لئلا يضرب . فقام فصلى وأطال

الصلاة، وجعلت المرأة تحترق في نفسها، فلما انصرف من الصلاة قالت المرأة: الله الله في ولدي، فقال لها: إني إنما كنت في حاجتك، فما رام مجلسه الذي صلى فيه حتى جاءت امرأة إلى تلك المرأة فقالت لها: أبشري فقد أُطلق ولدك وها هو في المنزل، فانصرفت إليه.

وهل هناك أعظم من الصلاة في طلب قضاء الحوائج؟ أليس فيها الاتصال مع الله ومناجاته؟ وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا فيها من الدعاء عسى أن يستجاب لكم، فأولى بالعبد أن يناجي ربه في قضاء حوائجه لأن الأمور بيده «**والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء**» وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .. وقال: «**أرحنا بها يا بلال**».

❀ ❀ ❀

فصل
في ذكر
مناقب الأئمة الأربعة
أصحاب المذاهب
رضي الله عنهم

فصل: في ذكر مناقب الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب رضي الله عنهم

الإمام أبو حنيفة

صفاته

كان حسن الوجه وسيم الطلعة عذب المنطق حلو الحديث ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الذي تنبو عنه العيون، وهو إلى ذلك لبَّاس أنيق الثياب بهي الطلعة كثير التعطر إذا طلع على الناس عرفوه من طيبه قبل أن يروه. ذالكم هو «النعمان بن ثابت» المكنَّى بأبي حنيفة أول من فتق أكمام الفقه واستخرج أروع ما فيه من طيوب. أدرك أبو حنيفة طرفاً من آخر عصر «بني أمية» وطرفاً من أول عصر «بني العباس».

علمه

قال أبو حنيفة: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين فقال لي: يا أبا حنيفة عمن أخذت العلم؟.

فقلت: عن حماد عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

قال: بخ بخ[1]، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة، الطيبين الطاهرين المباركين رضي الله عنهم أجمعين.

وروي عن أبي حنيفة أنه قال: دخلت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه. فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب، فجعلت على

(1) بخ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر. تقول مكرراً: بخ بخ.

نفسي ألا أفارق حماداً فصحبته عشرين سنة . قال: وما صليت صلاة إلا واستغفرت لحماد مع والديّ ولكل من قرأت عليه.

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: ما جاءنا ـ أو يقول ـ ما أتانا عن الله ورسوله قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا أو أتانا عن الصحابة اخترنا أحسنه ولم نخرج عن أقاويلهم، وما جاءنا أو أتانا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . كذا في (ربيع الأبرار).

مكانته من رسول الله ﷺ

ذكر الخطيب في ﷺ تاريخه: أن أبا حنيفة رأى في المنام أنه نبش قبر رسول الله ﷺ فبعث من سأل محمد بن سيرين.

فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً لم يسبقه إليه أحد.

وعن صالح بن محمد بن يوسف بن رزين عن أبي حنيفة أنه قال: رأيت في المنام كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ وأخرجت عظاماً فاحتضنتها، قال: فهالتني[1] هذه الرؤيا فدخلت على ابن سيرين وقصصتها عليه، فقال: إن صدقت رؤياك لتُحيينَّ سنة رسول الله ﷺ .

عبادته

فلقد روي أنه قام الليل كله وهو يردد قول الله ﷻ :

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[2].

وهو يبكي من خشية الله بكاءً يقطع نياط القلوب وينشج نشيجاً مبحوحاً يفطر الأفئدة.

وقد عرف عنه أنه صلى الفجر بوضوء العشاء نحواً من أربعين عاماً ما ترك ذلك خلالها مرة واحدة.

---

(1) فهالتني: أي أفزعتني .
(2) سورة: القمر، الآية: 46

وكان عامة ليله يقرأ القرآن في ركعة واحدة وكان يبكي في الليل حتى يرحمه جيرانه، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة.

وكان إذا قرأ سورة الزلزلة اقشعر جلده ووجل فؤاده وأخذ لحيته بيده وطفق يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خيرٍ خيراً ويا من يجزي بمثقال ذرة شرٍ شراً أجر عبدك النعمان من النار، وباعد بينه وبين ما يقربه منها وأدخله في واسع رحمتك يا أرحم الراحمين.

مواقفه

إن أبا حنيفة رضي الله عنه كان له جار إسكاف[1] يعمل نهاره فإذا رجع إلى منزله ليلاً تعشى ثم شرب فإذا دبَّ الشراب غنى وقال:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسِداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع صوته كل ليلة، ومرة كان أبو حنيفة يصلي الليل كله ففقد صوته فسأل عنه فقيل له: أخذه العسس[2] منذ ليال. فصلى أبو حنيفة الفجر من غده ثم ركب بغلته و أتى إلى دار الأمير فاستأذن عليه فقال: ائذنوا له، و أقبلوا به راكباً و لا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففعل به ذلك فوسع له الأمير من مجلسه و قال: ما حاجتك؟ قال: أشفع في جاري.

فقال الأمير: أطلقوه و كل من أخذ في تلك الليلة فأطلقوهم أيضاً وذهبوا، وركب أبو حنيفة بغلته و خرج الإسكاف يمشي وراءه فقال له أبو حنيفة: يا فتى هل أضعناك؟ فقال: بل حفظتَ و رعيتَ جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار.

ثم تاب الرجل ولم يعد إلى ما كان يفعل. كذا في(تاريخ بغداد).

حكمته

روي أن امرأة دخلت في مسجد أبي حنيفة وهو جالس بين أصحابه فأخرجت

---

(1) الإسكاف: صانع الأحذية ومصلحها.

(2) العسس: جمع عاسّ وهو من يطوف الليل يحرس الناس و يكشف أهل الريبة.

تفاحة أحد جانبيها أحمر و الآخر أصفر فوضعتها بين يديه و لم تتكلم، فأخذها أبو حنيفة وشقها نصفين، فقامت المرأة وخرجت ولم يعرف أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك، قال: إنها ترمي تارة أحمر مثل أحد جانبي التفاحة وتارة أصفر مثل الجانب الآخر، سألت: أيكون حيضاً أو طهراً؟ فشققت التفاحة وأريتها باطنها وأردت بذلك ألا تطهري حتى تري البياض مثل باطنها، فقامت وخرجت.

وقيل: إن أعرابياً دخل على أبي حنيفة وهو جالس بين أصحابه فقال له: أفي الصلاة واو أو واوان؟.

فقال: واوات.

فقال: بارك الله فيك كما بارك في لا ولا.

فلم يفهم أحد سؤال السائل ولا جواب أبي حنيفة فسألوه عن ذلك فقال: سألني أفي التشهد واو أو واوان، فقلت: واوات بالجمع.

فدعا لي بالبركة كما بارك في الشجرة الزيتونة لا شرقية ولا غربية . كذا في (المبسوط).

روي أن أبا حنيفة رضي الله عنه كان جالساً يوماً في المسجد فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين سيوفهم، فقالوا: يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت و إلا قتلناك.

قال: أغمدوا[1] سيوفكم فإن برؤيتها يشتغل قلبي.

قالوا: نحن نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك.

فقال: سلوا إذاً، فقالوا: جنازتان على الباب إحداهما رجل شرب خمراً فغص فمات سكراناً والأخرى امرأة حملت حملاً من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة أهما كافران أم مؤمنان؟.

والقوم السائلون مذهبهم التكفير بارتكاب ذنب واحد فإن قال: مؤمنان قتلوه.

---

(1) أغمدوا: أي أرجعوها إلى غمدها .

فقال: من أي فرقة كانا أمن اليهود؟. قالوا: لا.

قال: أمن النصارى؟. قالوا: لا.

قال: أمن المجوس؟. قالوا: لا.

قال: أمن عبدة الأوثان؟. قالوا: لا.

قال: ممن كانا؟.

قالوا: من المسلمين.

قال: قد أجبتم.

قالوا: وكيف؟.

قال: قد اعترفتم بأنهما كانا مسلمين، ومن كان من المسلمين كيف تجعلونه من الكافرين.

قالوا: هما في الجنة أو في النار؟.

قال: أقول فيهما ما قال إبراهيم الخليل عليه السلام في حق من هو شر منهما: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾[1] أو أقول ما قال عيسى روح الله عليه الصلاة والسلام فيمن هو شر منهما: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2] فتابوا واعتذروا إليه. من (الروض الفائق).

من ذلك أن رجلاً من أهل الكوفة أضله الله، وكان ذا قدر في عيون بعض الناس وصاحب كلمة مسموعةٍ لديهم، وكان الرجل يزعم للناس فيما يزعمه لهم أن عثمان بن عفان كان يهودياً في أصله وأنه ظل على يهوديته بعد الإسلام أيضاً بعد، فلما سمع أبو حنيفة مقالته هذه مضى إليه وقال له: لقد جئتك خاطباً ابنتك فلانة لأحد أصحابي.

فقال: أهلاً بك ومرحباً إن مثلك لا ترد له حاجة يا أبا حنيفة، ولكن من الخاطب؟.

---

(1) سورة: إبراهيم، الآية: 36.

(2) سورة: المائدة، الآية: 118.

فقال: رجل موسوم بين قومه بالشرف والغنى سخي اليد مبسوط الكف حافظ لكتاب الله ﷻ يقوم الليل كله في ركعة كثير البكاء من خوف الله تعالى.

فقال الرجل: بخ بخ، حسبك يا أبا حنيفة إن بعض ما ذكرته يا أبا حنيفة من صفات الخاطب يجعله كفؤاً لبنت أمير المؤمنين.

فقال أبو حنيفة: غير أن فيه خصلةً لا بدَّ من أن تقف عليها.

قال: وما هي؟. قال: إنه يهودي.

فانتفض الرجل وقال: يهودي! أتريد أن أزوج ابنتي من يهودي يا أبا حنيفة؟ والله لا أزوجها منه ولو جمع خصال الأولين والآخرين.

فقال أبو حنيفة: تأبى أن تزوج ابنتك من يهودي وتنكر ذلك أشد الإنكار، ثم تزعم للناس أن رسول الله ﷺ زوج ابنتيه كلتيهما من يهودي.

فعرف الرجل خطأه وقال: أستغفر الله من قول سوء قلته وأتوب إليه من فرية افتريتها.

روي أن الخليفة دعا أبا حنيفة رضي الله عنه وقال له: كم للرجل الحر من النساء الحرائر؟.

فقال: أربع، فقال: اسمعي يا حرة.

فقال أبو حنيفة على البديهة[1]: يا أمير المؤمنين لا يحل لك إلا واحدة. فغضب الخليفة وقال: الآن قلت أربع.

فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾[2] فلما سمعتك تقول: اسمعي يا حرة، عرفت أنك لا تعدل فلهذا قلت: لا يحل لك إلا واحدة.

---

(1) البديهة: سداد الرأي عند المفاجأة.

(2) سورة: النساء، الآية: 3.

فلما خرج أبو حنيفة بعثت زوجة الخليفة إليه ألف دينار وأنفذت تشكره وتثني عليه، فلم يقبلها وردها وقال للرسول: قل لها ما تكلمت لأجلك وما تكلمت إلا لأجل الله وأجري على الله.

دقة أبي حنيفة في الأحكام

كان أبو حنيفة دقيقاً في الأحكام الفقهية . حدث أن أبا ليلى قاضي الكوفة من قبل المنصور، نظر في امرأة مجنونة سبَّت رجلاً وقالت له: يا ابن الزانيين . فأقام أبو ليلى عليها الحد في المسجد وهي قائمة، وحدَّها حدين لقذف الأب والأم.

فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: إن أبا ليلى أخطأ في ستة مواضع، الموضع الأول أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد، والموضع الثاني أنه ضربها قائمة والنساء لا يضربن قائمات، والموضع الثالث أنه ضربها حدين للأم والأب ومن يقذف جماعة فعليه حد واحد، والموضع الرابع أنه جمع بين حدين في آن واحد ولا يجمع بينهما، والموضع الخامس أن المجنونة ليس عليها حد، والموضع السادس أنه حدَّ للأبوين وهما غائبان ولم يحضرا فيدَّعيا . فما أدق هذه الأحكام.

يسر مذهب أبي حنيفة

هذا وأبو حنيفة في صلب مذهبه يعمد إلى التيسير على المسلمين لا العسر، يضع نصب عينيه قول رسول الله ﷺ :

«إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا».

فالدين في روحه ومفهومه يسر لا عسر فيه، فالإمام ييسر على المسلمين في العبادات والمعاملات إلى الحد الذي يلفت النظر.

فيرى أن الحكم الشرعي لإزالة النجاسة عن الثوب هو إزالة عينها، إذن يصح إزالتها بكل ماء طاهر ولو بماء الورد أو الخل.

ومن اشتبهت عليه القبلة ولا مخبر ولا محراب تحرَّى بقدر المستطاع ولا إعادة عليه إن أخطأ، وإذا علم بخطئه في صلاته استدار وبنى.

وفي مجال الزكاة يقف أبو حنيفة في صف الفقراء حين يوجب الزكاة على الحلي من الذهب والفضة وفي جميع ما يأكله الآدميون من الخضار والثمار مستهدفاً التوسعة على الفقير، وهو يقول: إن الزكاة لا تجب على المدين الذي يستغرق دينه جميع ماله.

وأبو حنيفة يجعل للمرأة البالغة العاقلة الرشيدة الحق في الزواج بمن تختار لا سلطان لأحد عليها ولو كان أباً أو أخاً، ويجعل لها الحق في أن تباشر بنفسها عقد زواجها. كما يرى أن الشهادة في عقد الزواج تجوز برجل وامرأتين، ويرى أن الولي المجبر (وهو الأب والجد) إذا زوج ابنته البالغة زواجاً لا ترضاه لم يصح الزواج.

ومن طرائف أحكام أبي حنيفة ﷺ وقد كان ذا عقلية اقتصادية ممتازة أنه جعل من حق ولي أمر المسلمين تمليك الأرض الموات لمن يحييها ويجعلها صالحة للزراعة . كما أجاز بيع الثمر على الشجر قبل أن ينضج . كما أجاز الاتجار بمال اليتيم.

فلا غرابة إذاً وهذه شخصية أبي حنيفة وهذا مذهبه أن يشكل معتنقوه الأكثرية من أهل السنة من المسلمين.

وفاته

توفي أبو حنيفة سنة خمسين ومائة للهجرة في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي ﷺ.

فيكون قد انطوى علم من أعلام الإسلام لينتشر علم آخر، وبين وفاة هذا ونضوج ذاك ظهر إمام جليل القدر عظيم الشأن هو الإمام مالك بن أنس الآتي ذكره.

❀ ❀ ❀

أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي

نسبة إلى بطن من حمير يقال له: ذو أصبح نقل بعضهم وفي «تتمة المختصر» ما نصه: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحرث الأصبحي نسبة لذي الحارث بن عوف من ولد يعرب بن قحطان، وأنس بن مالك هذا غير أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ إذ هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي، وأنس أبو الإمام مالك تابعي.

ولد الإمام مالك رضي الله عنه سنة إحدى أو ثلاث أو أربع أو خمس أو سبع وتسعين.

قال الشافعي: إذا وجدت لمالك حديثاً فشد يدك به فإنه حجة.

وعن الشافعي قال: ما بعد كتاب الله هو أكثر صواباً من موطأ مالك.

صفاته

كان طويلاً جسيماً عظيم الهامة أبيض الرأس واللحية قيل: تبلغ لحيته صدره، وقيل: كان أشقر أزرق العينين يلبس الثياب العدنية[1] الرفيعة. قال أشهب: إذا اعتمّ جعل منها تحت ذقنه ويسدل طرفها بين كتفيه. قيل: وكان يكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة كذا في كتاب (الطبقات للشعراني) وغيره.

علمه

انتصب لتدريس العلم وهو ابن سبع عشرة سنة فاحتاج أشياخه إليه ومكث يفتي الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة وشهد له التابعون بالفقه والحديث.

---

(1) العدنية: أي منسوبة إلى عدن.

مكانته من رسول الله ﷺ

قال محمد بن رمح: حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم فنمت في مسجد رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر و المنبر فرأيت النبي ﷺ قد خرج من قبره وهو متوكئ[1] على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقمت فسلمت عليه فرد عليَّ السلام فقلت: يا رسول الله إلى أين أنت ذاهب؟

فقال ﷺ: «**أقيمُ لمالك الصراط المستقيم**» فانتبهت فأتيت أنا وأبي فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ وكان أول خروجه.

وحدث محمد بن عبد الحكم قال: سمعت محمد بن أبي السري العسقلاني يقول: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك، فقال ﷺ: «**إني قد أوصيتُ إلى مالك بكنز يفرقه عليكم**»، ثم مضى فتبعته فقلت: يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك.

فقال ﷺ: «**إني أوصيتُ إلى مالك بكنز يفرقه عليكم**»، ثم مضى فتبعته فقلت: يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك. فقال ﷺ: «**يا ابن السري إني قد أوصيت إلى مالك بن أنس بكنز يفرقه عليكم، ألا وهو الموطأ، ألا وليس بعد كتاب الله ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ فاسمعه تنتفع به**».

قال عمر بن سلمة: ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آت في المنام فقال لي: هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً.

قيل: إن مالكاً رضي الله عنه لما أراد أن يؤلف كتابه بقي متفكراً في أي شيء يسمي به تأليفه قال: فنمت فرأيت النبي ﷺ فقال: «**وطئ للناس هذا العلم**» فسمى كتابه الموطأ.

قال عبد الله بن المبارك: كنا عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما تفرق الناس عنه قلت: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً؟

---

(1) متوكئ: أي مستند.

قال: نعم، صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه. فقيل له في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم ما ترون، وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل ويقول: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

حكمته

قيل: كان مالك رضي الله عنه في تعظيم علم الدين مبالغاً حتى إذا أراد أن يحدث توضأ وصلى ركعتين وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن في الجلوس في وقار وهيبة ثم حدث فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ. هكذا يكون تعظيم العلم، فالعلماء إذا عظموا العلم عظمهم الله عند الناس وجعل لهم الهيبة والوقار في قلوب الملوك ومن دونهم، فيا أيها الطالب للعلم تواضع له فمن تواضع له تواضع لله ومن تواضع لله رفعه الله فإن التراب لما ذل لأخمص القدمين صار طهوراً للوجه كما قال تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾[1].

محبته للنبي ﷺ

عن الشافعي رضي الله عنه قال: رأيت على باب مالك دواب من أفراس خراسان جاءته هدية، وقيل: من مصر، ما رأيت أحسن منها فقلت له: ما أحسن هذه!. فقال: هي هدية مني إليك.

فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها.

فقال: إني لأستحي من الله أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة.

قال أبو عبد الله المنتاب: حفظ مالك مائة ألف حديث.

وقال الليث بن سعد: والله ما على وجه الأرض أحب إليَّ من مالك، وقال: اللَّهم زد من عمري في عمره.

وعن الدراوردي رحمه الله قال: رأيت في المنام أني دخلت مسجد رسول الله ﷺ

(1) سورة: النساء، الآية: 43.

فرأيت النبي ﷺ يعظ الناس، إذا دخل مالك، فلما رآه النبي ﷺ قال: «إلي». فأقبل حتى دنا منه فنزع رسول الله ﷺ خاتمه من أصبعه ووضعه في خنصر مالك رضي الله عنه. فأوّلته العلم قد وضعه النبي ﷺ إليه.

وفاته

توفي الإمام مالك رضي الله عنه لعشرة أيام خلت من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، وعاش تسعين سنة.

قال القعنبي: دخلت على مالك في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكي فقلت: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟

فقال: يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت بها برأيي بسوط سوطاً وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت وليتني لم أفت بالرأي . كذا في (تتمة المختصر).

قال ابن القاسم: كنا عند مالك في مرضه الذي مات فيه فدخل ابن الداوردي فقال: يا أبا عبد الله رأيت البارحة رؤيا أتسمعها مني؟ فقال: قل.

قال: رأيت رجلاً ينزل من السماء عليه ثياب بيض وبيده سجل ينشره مابين السماء والأرض ثلاث مرات يقول: هذه براءة لمالك من النار.

فبينما أنا أحدثه إذ دخل عليه رسول الأمير فقال: يا أبا عبد الله إن مؤذن المدينة رأى البارحة رؤيا . فسمعتها منه فقص عليه مثل ذلك.

فقال مالك: الله المستعان، ما شاء الله كان.

وعن أبي زكريا قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: قالت لي عمتي ونحن بمكة: رأيت في هذه الليلة رؤيا . قلت: وما هي؟.

قالت: رأيت قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض، فحسبنا ذلك اليوم فكان اليوم الذي مات فيه مالك رضي الله عنه.

❀ ❀ ❀

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائل بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، يجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف وهو الثالث من أجداد النبي ﷺ والتاسع من أجداد الشافعي رضي الله عنه.

صفاته

كان ﷺ طويلاً سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل القصب أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانئة، حسن الصوت حسن السمت عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق مهيباً فصيحاً، من أذرب الناس لساناً إذا أخرج لسانه بلغ أنفه وكان مسقاماً[1] ممنواً[2] بالبواسير كذا وصفه ابن صلاح.

وعن الربيع قال: كان الإمام الشافعي رحمه الله يختم القرآن في كل يوم مرة.

وعن الربيع أيضاً قال: كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة في الصلاة.

وقال الحسن الكرابيسي: بت مع الإمام الشافعي رضي الله عنه غير مرة فرأيته يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى الإنابة لنفسه وللمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه وللمؤمنين . وكان يقول رضي الله عنه : ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأنه يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة.

---

(1) مسقاماً: أي كثير السقم وهو المرض .
(2) ممنواً: أي مصاباً .

وقال الشافعي ﷺ : لما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف وكنت فقيراً بحيث لا أملك أن أشتري القراطيس فكنت آخذ العظم وأكتب فيه.

وروي عنه أنه خاط قميصاً عند بعض الخياطين ممن جهل قدره فهزأ به الخياط وجعل له الكم اليمين ضيقاً لا تخرج منه يده إلا بجهد والكم الآخر كأنه رأس عدل فلما جاء الشافعي رأى كمه ضيقاً جداً والآخر متسعاً جداً فقال: جزاك الله خيراً هذا الكم الضيق جيد لتشمير الوضوء وهذا الكم الواسع لأجل الكتاب.

وكان رسول الملك قد جاء إلى الشافعي بعشرة آلاف درهم فصادفه عند الخياط فقال له: ادفعها إليه حق خياطته هذا الثوب وفكرته في تفصيله.

فسأل عنه الخياط فقيل له: هذا الإمام الشافعي، فتتبعه وقبَّل أقدامه واعتذر إليه ثم خدمه وصار من أصحابه.

ومن كلامه ﷺ : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال ﷺ: أظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل.

وكان ﷺ يقول: وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم ولم ينسب إليَّ منه شيء.

وقال أيضاً: ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله ﷻ، وما ناظرني أحد قط إلا أحببت أن يظهر الحق على يده وما أبالي أن يبين الله ﷻ الحق على لساني أو على لسانه.

لطيفة: حكي عن الشافعي أنه قال: كان لرجل ابن أبله فبعثه يوماً ليشتري حبلاً طوله ثلاثون ذراعاً.

فقال: في عرض كم؟. فقال: في عرض مصيبتي فيك.

إن محمد بن الحسن وأبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحبي أبي حنيفة ﷺ امتحنا الشافعي محمد بن إدريس ﷺ صاحب الترجمة بحضرة الرشيد، فقال: ما تقول في رجلين خطبا امرأة فحلت لأحدهما ولم تحل للآخر وليست بمحرم له؟

فقال: إن أحد الرجلين كان له أربع نسوة فحرمت عليه الخامسة.

فقالا: ما تقول في رجلين شربا خمراً فوجب على أحدهما الحد ولم يجب على الآخر وكانا مسلمين؟

فقال: إن أحدهما كان حراً بالغاً فوجب عليه الحد والآخر كان صبياً لم يبلغ الحلم!

فقالا: فما تقول في خمسة زنوا فوجب على أحدهم القتل وعلى الآخر الرجم وعلى الثالث الحد وعلى الرابع نصف الحد والخامس لم يجب عليه شيء؟.

فقال: أما الأول فمشرك زنى بمسلمة فوجب عليه القتل، وأما الثاني فمحصن زنى فوجب عليه الرجم، وأما الثالث فبكر زنى فوجب عليه الحد، وأما الرابع فمملوك زنى فوجب عليه نصف الحد، وأما الخامس فصبي أو مجنون.

قالا: فما تقول في رجل أخذ قدحاً فيه ماء فشرب بعضه حلالاً وحُرِّم عليه الباقي؟.

فقال: إنه لما شرب بعضه رعف[1] في باقيه فحُرِّم عليه.

قالا: فما تقول في رجل دفع لزوجته كيساً مختوماً وقال لها: أنت طالق إن لم تفرغيه ولا تفتحيه ولا تقطعيه ولا تفتقيه فأفرغته على ذلك الحكم؟

قال: إن الكيس كان مملوءاً سكراً أو ملحاً فوضعته في الماء فذاب وتفرغ.

قالا: فما تقول في جماعة صلحاء سجدوا لغير الله تعالى وهم في فعلهم مطيعون؟.

قال: إنهم الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام.

---

(1) رعف فلان أو أنفه: خرج الدم من أنفه.

قالا: فما تقول في رجل صلى بقوم فسلم عن يمينه فطلقت زوجته وسلم عن يساره فبطلت صلاته ونظر إلى السماء فوجب عليه ألف درهم؟.

قال: إن هذا الرجل لما سلم عن يمينه نظر إلى رجل كان تزوج امرأته بالغيبة ولم يدخل بها قد قدم من السفر فوجب عليه طلاقها، ثم سلم عن يساره فرأى في ثوبه دماً كثيراً فوجب عليه إعادة الصلاة، ثم نظر إلى السماء فرأى الهلال وكان عليه ألف درهم في الشهر فوجبت عليه.

قالا: فما تقول في رجل لقي جارية فقبلها وقال: فديت من أبي جدها وأخي عمها وأنا زوج أمها فما تكون منه؟

قال: هي ابنته.

قالا: فما تقول في امرأة لقيت غلاماً فقبلته وقالت: فديت من أمي ولدت أمه وأخو زوجي عمه وأبوه ابن حماتي وأنا امرأة أبيه؟

قال: هي أمه.

كراماته

كان الإمام أحمد بن حنبل يعظم الإمام الشافعي ﷺ ويذكره كثيراً ويثني عليه، وكانت له ابنه صالحة تقوم الليل وتصوم النهار وتحب أخبار الصالحين الأخيار، وتود أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له، فاتفق مبيت الإمام الشافعي عند أحمد ﷺ في وقت ففرحت البنت بذلك طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقاله، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره والإمام الشافعي ﷺ مستلق على ظهره والبنت ترقبه إلى الفجر فقالت لأبيها: رأيتك تعظم الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة صلاةً ولا ذكراً ولا ورداً.

فبينما هم في الحديث إذ قام الشافعي فقال له أحمد: كيف كانت ليلتك؟.

فقال: ما رأيت ليلة أطيب منها ولا أبرك، ولا أربح.

فقال: كيف ذلك؟

قال: لأني رتبت في هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهري كلها في

منافع المسلمين، ثم ودعه ومضى.

فقال أحمد بن حنبل لابنته: هذا الذي عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأما قائم . من (الروض الفائق).

روى سويد بن سعيد ﷺ قال: كان الشافعي جالساً بعد صلاة الصبح في مدينة النبي ﷺ إذ دخل عليه رجل فقال له: إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربي وليس لي عمل غير التوحيد.

فقال له الإمام الشافعي ﷺ : يا مؤمن لو أراد الله ﷻ تيئيسك من المسامحة لديه لما أحالك في مغفرة الذنوب عليه حيث يقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] ولو أراد الله عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفته به وتوحيدك.

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه ﷺ . كذا في (الروض الفائق).

رؤيا الشافعي

سمعت الشافعي ﷺ يقول: رأيت وأنا باليمن كأني جالس في فضاء الطواف، إذا أقبل علي بن أبي طالب ﷺ فقمت إليه مسرعاً وسلمت عليه وصافحته فعانقني ونزع خاتمه من إصبعه فجعله في إصبعي، فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر فقال لي: أبشر يا أبا عبد الله أما رؤيتك لعلي بن أبي طالب في المسجد الحرام فهو النجاة من النار، وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب، وأما جعله الخاتم في إصبعك فسيبلغ اسمك في الدنيا ما بلغ اسم علي بن أبي طالب ﷺ.

وفاته ﷺ

روي عن المزني قال: دخلت على الشافعي ﷺ في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف أصبحت؟

---

(1) سورة: آل عمران، الآية: 135 .

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم ... تزل تجود وتعفو منة وتكرما

تزوج الشافعي رضي الله عنه حميدة بنت نافع بن عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له أبا عثمان محمداً وكان قاضياً في حلب، وفاطمة، وزينب وللشافعي ولد آخر يقال له: الحسن مات طفلاً. نقله الرازي.

❀ ❀ ❀

الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل ابن هلال بن أسد بن إدريس الشيباني المروزي

ولد الإمام أحمد ﷺ سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول بمرو وقيل: ببغداد ونشأ بها.

قال ابن خلكان: كان الإمام أحمد إمام المحدثين، صنف كتابه (المسند) وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره.

قيل: وكان يحفظ ألف ألف حديث، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه ﷺ ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر.

مكانته

وكان شيخاً أسمر مديد القامة يخضب بالحناء، وفي (طبقات الشعراني) أنه كان يقول: رأيت رب العزة في المنام، فقلت: يا رب ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك؟

فقال: بكلامي يا أحمد.

فقلت: بفهم أو بغير فهم؟

قال: بفهم وبغير فهم.

وكان ﷺ إذا جاءه طالب حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره.

وكان يقول: تزوج يحيى بن زكريا عليهما السلام مخافة النظر.

وكان ﷺ يضرب به المثل في اتباع السنة واجتناب البدعة.

عبادته

وكان لا يدع قيام الليل قط وله في كل يوم وليلة ختمة، وكان يسر ذلك عن الناس، قال أبو عصمة: بت ليلة عند أحمد ﷺ فجاءني بماء فوضعه، فلما

أصبح نظر إلى الماء فوجده كما هو فقال: يا سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل.

وكان ورده كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة، فلما ضرب بالسياط ضعف بدنه فكان يصلي مائة وخمسين ركعة كل يوم وليلة.

وحج ﷺ خمس حجات ثلاثاً منها ماشياً، وكان ينفق في كل حجة نحو عشرين درهماً.

أيام المحنة

ولما قدم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له أبو الهيثم العيار، فوقف عنده وقال: يا أحمد أنا فلان اللص، ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أني على الباطل، فاحذر أن تقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه.

قال الفضيل بن عياض: حُبس الإمام أحمد ﷺ ثمانية وعشرين شهراً وكان فيها يُضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس[1] بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه، ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق فاشتد الأمر على أحمد وقال: لا أسكن في بلد ألحد فيه، فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل، فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة وكانوا أشر الطوائف المبتدعة.

حكمته

بلغ الإمام أحمد بن حنبل أن رجلاً وراء النهر يروي أحاديث ثلاثية، فرحل الإمام أحمد إليه فلما ورد عليه وجده يطعم كلباً فسلم عليه أحمد ﷺ فرد عليه السلام ثم اشتغل بإطعام الكلب ولم يقبل على الإمام، فوجد الإمام أحمد في

(1) ينخس: يطعن.

نفسه شيئاً إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه، فلما فرغ الرجل من طعمة الكلب التفت إلى الإمام وقال: لعلك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك؟

قال: نعم.

فقال الرجل: حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة**» ثم قال الرجل: أرضنا هذه ليست بها كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه.

فقال الإمام أحمد: يكفيني هذا الحديث، ثم رجع. كذا في (حياة الحيوان) وغيره.

قال المروزي: لما حُبس أحمد بن حنبل في سجن الواثق على أن يقول بخلق القرآن، جاءه السجان يوماً فقال له: يا أبا عبد الله، الحديث الذي يُروى في الظلمَةِ وأعوانهم صحيح؟

قال: صحيح.

قال السجان: أفأنا من أعوان الظلمة؟

قال: لا.

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأن أعوان الظلمة الذي يأخذ شعرك ويغسل ثوبك ويصلح طعامك، وأما أنت فمن الظلمة.

وفاته

توفي أحمد ﷺ سنة إحدى وأربعين ومائتين، وعاش سبعاً وسبعين سنة، ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال: هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده.

واجتمع الناس على بابه لعيادته حتى امتلأت الشوارع والدروب، ولما

قبض صاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء وارتجت الدنيا لموته، وخرج أهل بغداد إلى الصحراء يصلون عليه فحزروا من حضر جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ومن النساء ستين ألف امرأة سوى من كان في الأطراف والسفن والأسطحة، فإنهم بذلك يكونون أكثر من ألف ألف، وفي رواية: بلغوا ألفي ألف وخمسمائة ألف، وأسلم يومئذ عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس، كذا في (طبقات الشعراني).

حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من مسجد الرصافة وفي كمه شيء يتحرك، فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي وأكرمني.

فقلت: ما هذا الذي في كمك؟

قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن أحمد بن حنبل فنُثر عليه الدُّر والياقوت فهذا مما التقطت.

قلت: ما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل؟

قال: تركتهما وقد زارا رب العباد وَوُضِعت لهما الموائد.

قلت: فلمَ لا تأكل معهما أنت؟

قال: قد عرف هوان الطعام عليَّ فأباحني النظر إلى وجهه . ومثله في (تاريخ ابن خلكان).

❀ ❀ ❀

المراجع

- **أسماء الله الحسنى**، محمد راتب النابلسي.
- **لطائف المعارف**، عبد الرحمٰن الحنبلي.
- **منهج التربية النبوية للطفل**، محمد نور عبد الحفيظ سويد.
- **أحاسن المحاسن**، إبراهيم بن أحمد الحنبلي.
- **حكايا وعبر**، محمد نديم الشهابي.
- **قصص الصالحين**، مصطفى مراد.
- **صور من حياة الصحابة**، الدكتور عبد الرحمٰن رأفت باشا.
- **تنبيه الغافلين**، السمرقندي.
- **ليل الصالحين وقصص العابدين**، أحمد مصطفى الطهطاوي.
- **من ملف النبوة**، أسماء طباع.
- **حكايا الصوفية**، أبو اليسر عابدين.
- **الرسالة القشيرية**، يوسف خطار محمد عبد الجليل.
- **موسوعة الخطباء**، يوسف خطار محمد.
- **الوصايا المنبرية**، محمد بحري.
- **صفة الصفوة**، ابن الجوزي.
- **أمراض القلوب**، عبد القادر محمد منصور.